

الملائكة

جاء في تفسير القرطبي . شرحاً للآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين بعد المائة من سورة آل عمران : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

قال بعضهم إن الملائكة كانوا يقاتلون مع المسلمين ، وكانت علامة ضربهم في الكفار ظاهرة لأن كل موضع أصابته ضربتهم اشتعلت فيه النار . حتى إن أبا جهل قال لابن مسعود : أنت قتلتني؟! إنما قتلتني الذي لم يصل سناني (أي حدسي) إلى سنبك فرسه (أي إلى حافر فرسه) ، وإن اجتهدت . وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ، فكل عسكر صبر واحتسب ، تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون ، إنما يكونون عدداً أو مدداً . فقال بعضهم : إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة ، أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ . فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر ، وإنما حضروا للدعاء بالثبوت ، والأول أكثر .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف فذلك قوله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، وقوله : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) ، وقوله :

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا : يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله فأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم . فهذا كله يوم بدر . . .

قال الشعبي : بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فأنزل الله تعالى : (ألن يكفیکم - إلى قوله مسومين) . فبلغ كرزاً الخزيمة . فلم يمدهم ورجع . فلم يمدهم الله أيضاً بالخمسة آلاف وكانوا قد مدوا بألف . وقيل إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدهم أيضاً في حروبهم كلها . فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب . فأمدهم حين حاصروا قريظة . وقيل إنما كان هذا يوم أحد . وعدهم الله المدد إن صبروا . فما صبروا فلم يمدهم بملك واحد ولو أمدوا ، لما هزموا .

ثم قال : ا

نزول الملائكة سبب من أسباب النصر . لا يحتاج إليه الرب تعالى . وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله . وليثق به . فهو الناصر بسبب ، وبغير سبب : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) . لكن أخبر بذلك ليحتمل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد قلت من قبل (ولن تجهد لسنة الله تبديلاً) . ولا يقدر ذلك في التوكل ، وهذا رد على من قال : إن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء ، لا للأقوياء فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء وهذا واضح . .

وجاء في تفسير المنار :

« وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال : إن الملك يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمداين قوم لوط ، فإذا أحضر هو يوم

يدرفأى حاجة إلى مقاتلة الناس الكفار ؟ وبتقدير حضوره . أى فائدة من إرسال سائر الملائكة ، وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، ومقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

« وأيضاً لو قاتلوا فيما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أولاً ؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ، ولأنه خلاف قوله : (ويقللكم في أعينهم) ، ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البتة . »
« وعلى الثاني : كان يلزم جزر الرؤوس وتمزق البيطون وإسقاط الكفار ، من مشاهدة فاعل ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات : فكان يجب أن يتواتر ويشتهر من المسلم والكافر ، والموفق والمخالف .. وأيضاً أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكل ، وإن كانوا أجساماً لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول .

وجاء في تفسير المنار : نقلاً عن الشيخ محمد عبده :

الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته ، وإنما نؤمن به بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه . ثم قال : إن إلهام الخير والوسوسة بالشر ، مما جاء في لسان صاحب الوحي صلى الله عليه وسلم كل منهما محله الروح ، فالملائكة والشياطين إذن تتصل بأرواح الناس ، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتمثيل الجثمانية المعروفة لنا ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا ، فإنما تتصل بها عن طريق أجسامنا ، ونحن لانحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس ، فإذاً هي من عالم غير عالم الأبدان قطعاً . والواجب على المسلم في مثل هذه الآية : الإيمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سيقف لها القصة .

ويقول الشيخ رشيد رضا : إن إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف في الكتاب والسنة ، وأما إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة فيؤخذ

من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام . ومن حديث الشيخين في المحدثين
وكون عمر منهم - والمحدثون بفتح الدال وتشديد دها : الملهمون . ومن
حديث الترمذى والنسائى وابن حبان وهو « إن للشيطان لمسة باين آدم
وللملك لمسة . فأما لمسة الشيطان فأيعاز بالشر . وتكذيب بالحق . وأما
لمسة الملك فأيعاز بالخير وتصديق بالحق .

ثم قال الشيخ محمد عبده : وذهب بعض المفسرين مذهباً
آخر في فهم معنى الملائكة : وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم
موكلين بالأعمال من إنباء نبات ، وخلق حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ،
فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة . وهو أن هذا النموذج
النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة . فكانت به هذه
الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان ، فكل
أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجادها ، فإنما
قوامه بروح إلهى سمي في لسان هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف
من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوى يظهر أثرها في الطبيعة ،
والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن في باطن الحلقة أمراً هو مناطها ،
وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن
بالوحي تسميته ملكاً ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر
بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوى طبيعة أو ناموساً طبيعياً لأن هذه
الأسماء لم ترد في الشرع ، فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه
الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً
لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب ، يقول لا أعرف الروح ، ولكن
أعرف قوى لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس ؟
« وكل يقر بشيء غير ما يرى ويحس ، ويعترف بأنه لا يفهمه حق
الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه . وماذا على هذا الذى يزعم
أنه لا يؤمن بالغيب ، وقد اعترف بما غيب عنه ، لو قال : أصدق

بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون .

« يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهيم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو الشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض على مجلس شورى ، فهذا يورد وذلك يدفع ، واحد يقول افعل . وآخر يقول لا تفعل . حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويرجع أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً ، وهي في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حرج فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع . »

ثم قال الشيخ رشيد رضا تعقيباً على رأى شيخه هذا :

إن الإمام الغزالي سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال : إنه سمي ملكاً فإنه بعدما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال : « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث لا بد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك الأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذى يتهيا به القلب لقبول مهام الخير يسمى توفيقاً ، والذى يتهيا به لقبول الشر يسمى إغواء وخذلاناً ، إن من المعانى المختلفة ما يحتاج إلى أسام مختلفة . »

وقد أورد ابن جرير الطبرى في تفسيره عن عبد الله بن عباس أنه

قال : لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر . وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضر بون .

وعن مجاهد أنه قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر .

وقال آخرون إن الله عز وجل . إنما وعدهم يوم بدر أن يمدهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه . واتفقوا باجتناب محارمه . أن يمدهم في حروبهم كلها . فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب . فأمدهم حين حاصروا قريظة .

وقال آخرون بنحو هذا المعنى . غير أنهم قالوا : لم يصبر القوم ولم يتقوا ولم يمدوا بشيء في أحد .

عن عمرو بن دينار عن عكرمة سمعه يقول : (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) ، قال : يوم بدر . قال فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ولو مدا ولم يهزموا يومئذ .

وعن الضحاك قوله : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف من الملائكة مسومين ؟ كان هذا وعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ففر المسلمون يوم أحد ، وولوا مدبرين ، فلم يمدهم الله .

ثم قال ابن جرير : وأما الذين قالوا كان ذلك يوم بدر ، بسبب (كرز بن جابر) فإن بعضهم قالوا لم يأت كرز وأصحابه إخوانهم من المشركين مدداً لهم ببدر ، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته ، لأن الله عز وجل إنما وعدهم أن يمدهم بملائكته إن أتاهم كرز وأمد المشركين من فورهم ، ولم يأتهم المدد .

وقد مر بنا رأى الشيخ محمد عبده ، ورأى تلميذه الشيخ رشيد رضا في حقيقة الملائكة وطبيعة دورهم ، ونضيف إليه ما جاء في تفسير مجمع البحوث الإسلامية المسمى بالتفسير الوسيط ، من أن الملائكة

جمع ملك . وهم ذوات نورانية . خلقوا لطاعة الله فيما يأمرهم به ، ولهم قدرة التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة . وهذا كان الرسل يرونهم ، وهذا مذهب أكثر المتكلمين . وقال الحكماء . هم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة بالحقيقة .

ويتمق القرطبي والطبري في أن أصل لفظ (ملاك) مألک : مشتق من فعل (لاک) أى أرسل . وأرسلت إليه مألکة . وألوكماً : أى رسالة . فحيث الملائكة ملائكة بالرسالة . لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ، ومن أرسلت إليه من عباده .

وجاء في القرطبي أيضاً في شرح الآية الأولى من سورة فاطر : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جعل الله الملائكة رسلاً . قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء : وقال السدي : إلى العباد برحمته ونعمته .

بني أن نتأمل في جميع ما سلف من النصوص ، وفي آيات القرآن الكريم ، التي ورد فيها ذكر للملائكة ومن كل هذا يبين لنا :

أولاً : أن القرآن الكريم خلا خلواً تاماً من وصف الملائكة من حيث الهيئة والطبيعة والعدد إلا فيما جاء في الآية الأولى من سورة فاطر ونصها الذي مر بنا : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء) والمفسرون متفقون تقريباً ، على أن أجنحة الملائكة ليست من قبيل ما نعرفه من أجنحة الطيور . فلا هي من الريش ، ولا هي بالبداهة من اللحم والعظم .

ثانياً : ليس في القرآن الكريم نص يعنى مباشرة ، أو يوحى بأن للملائكة دخلاً أو صلة بحياة البشر ، وبما يضطربون فيه من أمور معاشهم ، أو تنافسهم على الرزق ، أو تحصيلهم للعلم ، أو سعيهم للخير ، أو انحرافهم إلى الشر .

فالملائكة أرسلوا في الماضي إلى الأنبياء . كما أرسل جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكما أرسلت الملائكة إلى مريم لتقول لها إن الله اصطفاه . وإن الله يبشرها بكلمة منه . وكما نادى الملائكة زكريا وهو قائم يصلى في المحراب . وكما أرسلت الملائكة إلى إبراهيم ولوط . فالملائكة لا يرسلون إلى أفراد الناس ، ولم يرسلوا قط في الماضي على ما أثبتته القرآن الكريم .

ثالثاً : بل الثابت في القرآن أن الناس ، في عهود الرسالات ، والنبوات طلبوا أن يرسل إليهم ملائكة بدلا من الأنبياء والرسول الذين اصطفاهم الله من أبناء آدم ممن يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وكانت حجة الكافرين أن إرسال الملائكة بالرسالة . وتكليفهم أعباء النبوة أقطع في صحة هذه الرسالة وأكد لصديق الرسول . فأبى الله إلا أن يكون رسوله من الناس ، يخاطبون المرسل إليهم بلغتهم ، ويحاجونهم بحجج العقل ، لا بالقهر الذي لا يكون للمؤمنين المصدقين فضل فيه ، كما لا يكون للمكذ بين المعارضين باب للتوبة ، أو سبيل للمغفرة : ففي سورة الأنعام مثلا : (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) ، ثم في سورة الإسراء تبرير لعدم إجابة المعاندين إلى ما يطلبونه من أن يكون المرسل ملائكة (لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) فالرسول يكون من طبيعة المرسل إليهم ، ولذلك جاء في سورة الأنعام (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) .

ولذلك أغلق في باب الدجاجلة والمشعوذين باب الادعاء بأنهم رأوا ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين ، أو أن الملائكة تحدث إليهم ، أو أشارت عليهم ، أو اتصلت بهم .

رابعاً : والمسلمون - وإن كانوا مأمورين أن يؤمنوا بوجود الملائكة - لم يطلب منهم أكثر من هذا التصديق ، فليسوا مأمورين بأن يتوجهوا

إليهم بصلاة أو عبادة . أو أن يلتمسوا منهم من دون الله عوناً أو إرشاداً أو رعاية - فهم من مخلوقات الله . وعباده . والآيات على ذلك كثيرة ففي سورة النجم : (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً) ، وفي سورة آل عمران : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) ، وفي النساء : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) .

خامساً : بل إن قصة خلق آدم قاطعة الدلالة بأن الله فضل آدم على الملائكة ، إذ أمرهم بأن يسجدوا له ، وإذ خصه دونهم بجعله «خليفة» وإذ ميزه عنهم جميعاً بأنه علمه وحده الأسماء كلها ، ثم عرضها على الملائكة فعجزوا أن يجاروه في علمه ، وأن يبلغوا مبلغه في الاستعداد للمعرفة على ما به من ضعف وعلى ترديه في الخطيئة ، وحبه لسفك الدماء .

سادساً : أن القرآن لم يرو غير واقعة واحدة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعد الله فيها الرسول والمسلمين الذين حاربوا معه الكفار أن يعينهم بمدد من الملائكة . وقد اختلف المفسرون في فهم ما جاء في القرآن الكريم في هذا الصدد ، فمنهم من ذهب إلى القول إن الملائكة لم يحاربوا في بدر ولا غيرها ، ومنهم من قال إنهم نزلوا في بدر ، وإنما كان نزولهم للتثبيت والدعاء والتكثير ، ومنهم من قال إنهم لم يحاربوا إلا في بدر ، وآخرون قالوا بل في موقعة الأحزاب .

ولكن الجميع متفقون على أن الوعد بنزول الملائكة ، هو بشرى بالنصر لاسببه ، فالنصر في جميع المعارك ، له أسبابه التي بينها القرآن ولقنها الرسول للمسلمين ، والتي لخصتها الآية : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فالنصر من عند الله ، ولكن الله لا يمنحه إلا لمن يستحقه ، ولا يستحقه إلا من تهيأ له ، من طاعة لأحكام الدين التي هي سنن الكون السليمة ، وقواعد الحياة الصحيحة

وأساليب الجهاد الرفيعة . ومنها قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) . ومنها قوله عز وجل : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) : ومنها أمره الكريم : (اتقوا خفافاً وثقلاً ولا جاهدوا بأموالكم وأنفسكم) . ومنها وعده الصادق : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) : ومنها تحذيره : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

وجملة القول أن في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة ليس فيه ما يخرج صدر أبناء العصر ولا عقولهم . فهم يسمعون أن الإسلام دين قائم على العقل . وأنه ليس فيه شيء غامض . فهو واضح كل الوضوح بين إلى أقصى الغاية . وأنه لا مجال فيه للمتجرين بالأوهام والمروجين لها ، ولا تعارض بين أحكامه وآياته كتابه . وبين ما يؤدي إليه العلم ، وما يأمر به العقل . وأن عناصر الغيب الذي يدعو إليه . لا يرفع عن عائق الإنسان مسئولية تكييف حياته . وتقرير مصيره . والسعي الدائب للكشف عن حقائق هذا الكون وتسخيرها . والانتفاع بها ومساوقة الأقوياء في حلقات الفكر والبحث . وفي التسليح بماديات الحياة . بعد التحصين بمعنوياتها التي هي الأصل الأصيل لكل قوة ، والباعث الأول على تحقيق كل عزة ومنعة .